عرب الخليج فى وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية
ويوميات جمبرون لشركة الهند الشرقية الإنجليزية

د. محمد موسى عبد الله(*)

أولاً : ظهور وثائق شركة الهند الهولندية والإنجليزية :

يعتبر تكوين هذه الشركات مرحلة جديدة فى تاريخ أوربا فهى شركات سرعان ما أصبح لها أسطول وجيش إلى جانب المراكز التجارية ونشاطها التجارى. وكانت هذه الشركات مخولة لتمثيل بلدها فى عقد الاتفاقيات الاقتصادية والسياسية مع الدول الآسيوية . وكان نشاطها هذا نواة تكوين الإمبراطورية الهولندية والبريطانية فى مياه المحيط الهندى .

تأسست شركة الهند الهولندية عام ١٦٠٢ وهى مؤسسة كبيرة وتسمى رسمياً شركة الهند الشرقية المتحدة V. O. C. وهى وليدة اتحاد فدرالى لست شركات تجارية تمثل المقاطعات الهولندية المتحدة وقد قام بها سياسيون هولنديون فى ذلك العام .

وتوجهت سفن هذه الشركة ورجالها نحو أندونيسيا وأسست لها فى عام ١٦١٩مدينة أوربية فى قرية جاكرتا بجزيرة جاوة وسميت بتافيا وأصبحت بتافيا المقر الرئيسى للشركة ويقيم فيها الحاكم العام .

وسرعان ما نشأ لهذه الشركة مؤسسات فى كثير من المواقع مثل كولومبو ومالابار وكييتون والبنغال . ومنها مؤسسة فى بندر عباس عام ١٦٢٣ . وكان من المتوقع أن يشارك الهولنديون فى حملة الشاه عباس ضد موقع البرتغاليين فى جزيرة هرمز والجسم ولكن سبقهم بذلك الإنجليز وتطور مبنى الوكالة الهولندية فى

(*) مدير مركز الوثائق والدراسات أبو ظبى

أواخر القرن السابع عشر إلى فندق يحيط به ساحة المكاتب وورش العمال ووحدات سكنية ومخازن للبضائع والأسلحة والمؤن وقطع غيار السفن ومعداتها . ثم بنى مجمع عسكرى أواخر القرن خارج المدينة وبه مرسى آمن .

وفى عام ١٧٥٠ انتقل مقر وكالة الشركة الهولندية فى الخليج إلى البصرة وظلت هنالك حتى عام ١٧٥٥ ثم انتقلت بعد ذلك إلى جزيرة خارج بين عام ١٧٥٥ وعام ١٧٦٥ . ورحل الهولنديون نهائياً عن الخليج فى عام ١٧٦٦ .

أما شركة الهند الشرقية الإنجليزية فقد تأسست عام ١٦٠٠ . وتوجهوا إلى أندونيسيا أيضاً . ولكن طردهم منها الهولنديون . وحصلت الشركة على فرمان تأسيس وكالة لها فى جاسك عام ١٦١٦من إمبراطور المغل فى الهند . ونشأت ٧ مراكز أخرى فى داخل إيران فى شيراز وأصفهان فى عام ١٦١٧ وتعاونت بحرية الشركة مع الشاه عباس فى احتلال جزيرة الجسم وطرد الحامية البرتغالية من هرمز. وكافأهم الشاه بإعطائهم وكالة فى جمبرون التىسرعان ما سميت بندر عباس .

وهنا بدأت تظهر لنا وثائق الشركة الإنجليزية المعروفة باسم وثائق جمبرون وامتدت فترتها حتى عام ١٧٦٣ بعد أن قررت شركة الهند الشرقية الإنجليزية التخلى عن موقعها فى بندر عباس بعد أن حطمت مبنى الوكالة البحرية الفرنسية علم ١٧٥٩ وانتقل مقر الوكالة إل البصرة ثم استقر فى بوشهر عام ١٧٦٣ واستمر هنالك المقر الرئيسى للنشاط البريطانى فى الخليج حتى عام ١٩٤٧ .

ثانياً : أحداث القرن السابع والثامن عشر فى الخليج :

هذه الفترة غنية بالأحداث والتطورات فى دول الخليج . فى إيران بدأ القرن السابع عشر بوجود الشاه عباس الذى نقل مقر الحكم من تبريز إلى أصفهان وتعاون مع شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى القضاء على مقر النفوذ البرتغالى فى

هرمز عام ١٦٢٢ . وبدأ النفوذ البريطانى والهولندى التجارى يحل مكان النشاط البرتغالى حتى اختفى تماماً فى نهاية القرن السابع عشر الوجود البرتغالى فى المنطقة.

كما شاهد هذا القرن استمرار ضعف نفوذ الدولة العثمانية فى العراق والحسا وقد استقلت إمارة عائلة أفرسياب فى البصرة التى استقلت بها منذ عام وسقطت هذه العائلة عام .

وفى عمان ظهرت دولة اليعاربة التى لعبت دوراً كبيراً منذ عام ١٦٢٤ فى تحرير عمان من النفوذ البرتغالى وسقطت قلاع مسقط فى يدهم عام ١٦٥٠ . وأصبح لهذه الدولة أسطول كبير وهاجمت مواقع البرتغال الباقية فى الخليج وعلى ساحل أفريقيا الشرقى وقضت عليهم .

وفى إقليم الحسا كان ظهور إمارة بنى خالد فى عام . واستمرت هذه الإمارة تسيطر على أحداث الحسا حتى سقوطها على أيدى الوهابيين فى عام ١٧٩٦ .

وشهد القرن الثامن عشر الكثير من التغيرات التاريخية مثل :

- سقوط الدولة الصفوية عام ١٧٢٢ على يد محمود الأفغانى وقبائل الأفغان وعاشت إيران فى حالة من الفوضى حتى استعاد النظام فيها نادر شاه بين عام ١٧٣٠ وعام ١٧٤٧ . ثم سادت الفوضى ثانية حتى اقام فى بلاد فارس كريم خان زند بين عام ١٧٥٩ وعام ١٧٧٩ لوناً من الاستقرار والأمن وكانت عاصمته شيراز . وفى نهاية القرن قامت قبيلة قاجار بالسيطرة على الحكم فى تبريز ونشرت نفوذها فى كل أنحاء إيران عام ١٧٩٦ .
- ظهور الحركة الوهابية فى قلب نجد وسيطرتها على الدرعية عام ١٧٤٥ وانتهى هذا القرن بفرض هذه الدولة لنفوذها على الحسا عام ١٧٩٦ ودخلت

قواتها قطر . كما بدأت نشاطها فى عمان عام ١٨٠٠ . وبدأت تتجه إلى السيطرة على إقليم الحجاز حيث مكة والمدينة منذ عام ١٨٠٥ .

- أما فى عمان فقد سقطت دولة اليعاربة . وحدث انقسام بين قبائل عمان بين عام ١٧١٨ وعام ١٧٢٨ . ثم كانت غزوة نادر شاه لعمان بين عام ١٧٣٧ وعام ١٧٤٧ التى أدت إلى ظهور الإمام أحمد بن سعيد الذى حرر مسقط وصحار من الفرس . وأقام دولة ألبوسعيد . ولكن ظهر فى نفس الوقت قيادة لقبائل الشمال تحت قيادة الزعيم رحمة بن مطر القاسمى الذى استقل بإقليم الشميلية والظاهرة فى عمان وأنشأ إمارة القواسم .

- كما شاهد هذا القرن جذور قيام الإمارات العربية فى الخليج . إمارة آل صباح فى الكويت وإمارة آل خليفة فى شمال قطر والبحرين . ووضعت النواة الأولى لاستقلال قطر تحت حكم آل ثانى فى القرن التاسع عشر أما فى ساحل عمان الشمالى فقد قام هنالك حلفان كبيران حلف القواسم وعاصمته مدينة رأس الخيمة التى قامت على أنقاض ميناء جلفار . وكان للقواسم زعامة على القبائل العربية على الساحل الإيرانى وتكونت لهم إمارة هنالك فى ميناء لنجة . كما قام أيضاً فى ساحل الإمارات حلف بنى ياس الذى اتخذ من مدينة أبو ظبى عاصمة له .

- هذه هى الأحداث الهامة فى منطقة الخليج خلال القرنين السابع والثامن عشر وهذه الفترة تعاصر حدثاً كبيراً فى الخليج وهو نشأة وجذور الإمارات العربية على الساحل العربى . ماذا تضيف لنا وثائق جمبرون أى وكالة بندر عباس الإنجليزية وكذلك وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية من جديد عن عرب الخليج الذين جاء القليل عنهم فى المخطوطات العمانية ؟

ثالثاً : أضـواء جديـدة عـن عـرب الخليـج فـى الوثـائق الهولنديـة والبريطانية :

كيف تحولت قبائل إقليم الظاهرة وفى منطقة الظفـرة وليـوا فـى عمـان مـن قبـائل بدويـة إلى أحـلاف سياسـية وإمـارات وكيـف اسـتقلت عـن جسـد دولـة آلبوسعيد فى منتصف القرن الثـامن عشـر ؟ لا تسـعفنا المخطوطـات العمانيـة فـى تاريخ هذه الفترة بمعلومات كثيرة عن هذا الموضوع وكل ما جاء عنه جمل متنـاثرة هنا وهناك لا تكفى لتكوين صورة عن الظـروف التاريخيـة التـى نشـأ فيهـا حلـف القواسم وحلف بنى ياس . ومن هم زعماء هذه الأحلاف وما هـى سـيرتهم ؟ إن هذه الإمارات تشكل اليوم دولة الإمارات العربية المتحدة . كمـا نتـج عـن هجـرة القبائل العربية المعاصرة لهذه الأحلاف قيام إمارة آل صباح فى الكويت وقيام إمارة آل خليفة فى البحرين .

وكان لابد مـن البحـث عـن أضـواء ومصـادر جديـدة للإجابـة علـى هـذه الأسئلة لهذا قام مركز الوثائق والدراسات . وعمله الرئيسـى البحـث عـن المصـادر الجديدة فـى تـاريخ الخليـج بعمـل مشـروعين كبـيرين منـذ عشـرين عامـاً . الأول التعرف على وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية المحفوظة فى لا هـاى . علـى أمـل ترجمة هذه الوثائق إلى اللغة الإنجليزية والعربية وقد قام بجمع هـذه الوثـائق للمركـز الدكتور سلوت نائب مدير الأرشيف هنالك . وبعد مرور هذه السـنوات الطويلـة على فهرسة هذه الوثائق . وبسبب صعوبة قراءة لغة هـذه الوثـائق الهولنديـة وهـى مكتوبة فـى فـترة متقدمـة حتـى ليصعـب علـى أبنـاء هولنـدا إلا المتخصـص منهـم قراءتها. فكر المركز فى تكليف الدكتور سلوت بعمل دراسة عن عرب الخليج فـى الفترة ما بين عام ١٦٠٢ وعام ١٧٨٤ . ونشرت هـذه الدراسـة باللغـة الإنجليزيـة عام ١٩٩٣ كما ترجمها المجمع الثقافى فى أبو ظبى إلى اللغة العربية . وفى رأيى أن

هذا من أكبر الإنجازات التى حققها المركز فى عمله خلال هـذه السـنوات . وقـد اضافت لنا هذه الوثائق معلومات طيبة جديدة عن عــرب الخليـج . وسـوف نـرى مثالاً لذلك دراستنا عن الشيخ رحمة بن مطر القاسمى مؤسس حلف القواسم .

وتعتبر وثائق شركة الهند الشرقية الإنجليزية ووثائق حكومـة الهنـد البريطانيـة التى ورثت عملها من المصادر الجديـدة الهامـة فـى تـاريخ الخليـج الحديـث إذ هـى تشمل الفترة من عام ١٦٢٢ وحتـى عـام ١٩٤٧ . وقـد عاشـت الوكالـة فترتهـا الأولى فى جمبرون وهى بندر عباس بين عــام ١٦٢٢ وعـام ١٧٦٣ . فهـى بذلـك قريبة من أحداث عمان بصفة خاصة وتلقى هذه الوثائق الضــوء علـى هـذه الفـترة المبكرة من تاريخ حلف القواسم وحلــف بنـى يـاس . وهـذه الوثـائق محفوظـة فـى أرشيف الوكالات فى مكتبة حكومة الهند فى لندن . كمـا أن الجـزء الأكـبر منهـا محفوظ فى ارشيف بومباى فى الهند فى مجموعة G/29 تحت عنوان فـارس وخليـج فارس وتسمى وثائق الوكـالات . لم تحفـظ أوراق هـذه الوكالـة فـى جمـبرون بـل أرسلت إلى سورات ولندن بين عام ١٦٢٢ - ١٦٨٠ ثـم بعـد ذلـك أرسـلت إلى بومباى مقر الشركة الرئيسى فى غرب الهند . ويبدو ان وثائق هذه الوكالة قد فقد أغلبها أثناء تحطيم مدفعية الأسطول الفرنسى لمبنى هذه الوكالة فى بندر عباس عـام ١٧٥٩ . وكان انتقال مقر الشركة عـام ١٧٦٣ إلى بوشـهر خـيراً للتـاريخ . لأن الشركة الإنجليزية هنا وكذلك الشركة الهولندية التى انتقلت بين عام ١٧٥٥ وعـام ١٧٦٥ إلى جزيرة خارج فى شمال الخليج استطاعت أن تتعامل مع البصرة والعرب الوافدين الجدد فى الكويت من آل صباح . وسجلت لنا معلومات مفيدة عن هذه الإمارة .

ومن ضمن مجموعة وثائق بندر عبـاس التـى انقـذت مـن قذائـف الأسـطول الفرنسى عام ١٧٥٩ مجموعة تسمى رســائل مبكـرة مـن فـارس ورقمهـا G/29/1 وتشغل الفــترة مـن ١٦١٩ - ١٦٩٧ . ويوميـات جمـبرون وتشـمل الأجـزاء مـن

الثانى إلى الرابع عشر وتشـغل الفـترة مـن ١٧٠٨ وحتـى عـام ١٧٦٣ . وهنـالك مجموعة رسائل وملحقات مـن بنـدر عبـاس وتشـمل الجـزء ١٥ إلى السـابع عشـر وتشغل الفترة من عام ١٧٠٤ وحتى عام ١٧٦٣(١) .

وقراءة يوميات جمبرون وأوراق الشركة الإنجليزية فى تلـك الفـترة أمـر فـى غاية الصعوبة بسـبب تهـالك الأوراق مـن جـراء الرطوبـة فـى الخليـج وفـى مينـاء بومباى . وهى مكتوبة بخط اليد . ولغتها قريبة من لغـة عصـر شكسـبير . وتحتـاج قراءتها مرانا طويلاً . وقد قام مركز الوثائق والدراسات فى أبو ظبى منـذ سـنوات بإرسال ستة مـن البـاحثين عـام ١٩٩٥ لمـدة شـهرين لحصـر المتيسـر الموجـود فـى أرشيف بومباى وتصويره . وجاء ذلك فى ٢٢ ميكروفيلم كل فيلـم حـوالى ألفـى صفحة . وجرى خلال عامين قراءة هذه الوثائق وفهرسـتها . وأعيـد طباعـة هـذه الرسائل بالكمبيوتر لتسهل قراءتهـا واسـتخرجت مـن هـذه المجموعـة الموضوعـات المختلفة ومنها الرسائل واليوميات التى تهم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى .

ماذا تقول الوثائق الهولندية والوثائق البريطانيـة عـن الشـيخ رحمـة بـن مطـر القاسمى ؟

رابعاً : رحمة بن مطر القاسمى مؤسس حلف القواسم :

القواسم هم العائلة أو القبيلة التى ينتسب إليها فى إيامنا هذه العائلة الحاكمة فى كل من إمارتى الشارقة ورأس الخيمة . وقـد تزعمـت هـذه العائلـة مـن قبـائل ساحل عمان وأرض الظاهرة وساحل الشميلية على خليج عمان فـى بدايـة القـرن الثامن عشر ، واعتبرت التقارير البريطانية فى وكالة جمبرون (بندر عبـاس) وهـى حديثة العهد يومذاك فى التعامل مع عمان كل القبـائل المتحالفـة مـع هـذه العائلـة أفراداً فى قبيلة واحدة تسكن هذه المنطقة وتسمى القواسـم . وذاع اسـم القواسـم

فى التاريخ الحديث لجنوب شرقى الجزيرة العربية إذ تزعمت هذه العائلة بقيادة الشيخ رحمة بن مطر القاسمى حلف القبائل الغافرية فى ساحل عمان أول نشأة دولة ألبوسعيد وأنشأت لها إمارة مستقلة عاصمتها رأس الخيمة .

كما ذاع اسم القواسم فى بداية القرن التاسع عشر لظهور نزعة المغامرة لديهم واعتناقهم مذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وترصدهم لسفن دولة آلبوسعيد حكام مسقط وعمان وكذلك سفن حلفائهم شركة الهند الشرقية الإنجليزية مما أدى إلى قيام عدة حملات مشتركة بين البريطانيين فى بومباى وحكومة ألبوسعيد فى مسقط ضد القواسم وكان آخرها حملة حكومة بومباى ضد رأس الخيمة عام ١٨١٩ .

تنتشر جماعات القواسم فى أماكن متفرقة داخل عمان فى ملتقى بوادى سمايل وفى نفعا بوادى منصح وفى صحم بساحل الباطنة . وكذلك يوجدون فى المزرعة العلوى فى وادى الخليج وفى بندر جصة جنوبى مسقط . كما تعيش عائلات منهم مع بنى بو على فى صور وأرض جعلان . كما سكنت جماعات من القواسم على ساحل إيران فى الخليج وكان لهم إمارة فى لنجة فى بداية القرن الثامن عشر .

ويغلب على الظن أن القواسم كانوا نشطين فى التجارة وفى المناصب العسكرية فى مملكة هرمز العربية وسكن بعضهم على الساحل الإيرانى كما سكن مجموعة أخرى فى جلفار . ولما سقطت مملكة هرمز عام ١٦٢٢ على يد الإنجليز والشاه عباس بدأت حركة هجرة واسعة للقبائل والعناصر العربية هرباً من اضطهاد الفرس لعرب هذه الدول . وهنا تفرق القواسم كما رأينا فى توزيعهم فى أنحاء عمان .

تذكر وثيقة برتغالية أنه فى عـام ١٦٢٣ نجـح القـائد البرتغـالى جاسـبارروليته Gasparo Leite فى دخول قلعة كلبا وأخذها من قائدها القاسمى الذى كان يتمتع بشـهرة واسـعة وقـد تم هـذا الهجـوم تنفيـذاً لأوامـر القـائد العـام فريـرى دى اندرارى(٢). ولم يكن تثبيت البرتغال أقدامهم على السـاحل العربـى للخليـج بعـد سقوط دولتهم فى جزيرة هرمـز والجسـم عـام ١٦٢٢ بـالأمر الهـين . إذ اندلعـت حركة مقاومة شرسة لهم فى إقليم الشميلية وفى روس الجبال وفـى جلفـار وأرض الظاهرة . واجتمع قادة القبائل العمانية وعلماؤها وانتخبوا لهم إماماً هو نـاصر بـن مرشد اليعربى عام ١٦٢٤ لتحرير بلادهم من الوجود البرتغالى .

وقد جاء فى وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية فى بنـدر عبـاس رصـد طيب لحركة التحرير التى قام بها أول حكام دولة اليعاربة ناصر بـن مرشـد إذ جاء فيها :

« وصل إلى بندر عباس أنباء تفيد بأن العرب حـاصروا جلفار ثم هزموا البرتغاليين الذيـن كـانوا هنـاك ، كمـا غزا العرب الحصن وقتـل أربعـون جنديـاً برتغاليـاً وفـر الباقى هاربين إل مسقط»(٣) .

ويأتى ذكر للقواسم فى الوثائق الهولندية عام ١٦٤٨ فى نهاية حكم الإمـام ناصر اليعربى أثناء ضربه الحصـار علـى البرتغـاليين فـى حصـون مسـقط ، وقـد تم التوصل إلى اتفاقية بين قادة جيشه والبرتغاليين لتسليم الحصون . وكـان أحـد قـادة الحصار سيف بن على بن صالح القاسمى . وقد جاء فـى الاتفاقيـة الموقعـة فـى ٣٠ أكتوبر ١٦٤٨ بين الإمام ناصر بن مرشد وقائد مسقط العام جيليـنز دى نورونهـا Gileames De Noronha ما يلى :

« لقد اجتمع فى شاطىء ريام الشيخ سلطان بن سيف اليعربى القائد العام لقوات الإمام وقادة الجيش وهم راشد بن سالم بن على وعلى بن عبد الله الرستاقى والشيخ سيف بن على بن صالح القاسمى »(٤) .

وقد وقع الاتفاق هؤلاء القادة وذكر أن الشيخ سيف بن على بن صالح القاسمى هو الذى كتب الاتفاق العربى بيده كما جاء فى الوثائق البرتغالية .

وقد رسم لنا الوكيل الهولندى فى بندر عباس ويلمسون صورة مفصلة عن الإمام سلطان بن سيف فقال :

« يتحد الجميع فى طريقة لباسهم . وعندما نصف الإمام الكبير فكأننا نصف أيضاً جندياً عادياً أو راكب جمال أو فلاح . وعندما استقبلنا الإمام بحضور الجمهور كان على رأسه عمامة صنعت من القطن الخالص . ويبلغ طول هذا الجزء الخلفى منه ثلاثة أرباع الذراع . ولم تكن هذه العمامة عادية لأنه كان يضع على رأسه تحتها قلنسوة صنعت من خيوط الذهب فيما كانت قبعات الآخرين بسيطة ومصنوعة من القطن . ويضع الإمام سيفه إلى جانبه . ولكنه يحمله عادة فى حزام عريض على كتفه الأيسر ولا تختلف سترة الإمام عن سترات الأشخاص العاديين . فهى مصنوعة من الصوف ومقلمة بالطول بأقلام بيضاء عرض الكف وتتعلق على كتفيه كأنها غطاء أو عباءة أو كأنها معطف قائد السفينة . وهى دون أكمام . وكان يرتدى تحتها ثلاث عباءات أخرى وبعض القمصان المصنوعة من القطن أحدها ذو أكمام واسعة تصل

إلى رسغ قدميه . وكان يتمنطق بحزام يضع فيه خنجره وقد نسج عرضاً بخيوط الذهب . وكان حذاؤه أصفر اللون على الطراز الفارسى . والإمام متوسط القامة داكن البشرة »(٥) .

وينطبق هذا الوصف فى بساطةالملبس وتوحده والمساواة الواضحة بين الرئيس ورعيته فى المجلس مع وصف الرحالة البريطانى Thesiger الذى عبر الربع الخالى عام ١٩٤٧ وسمع كثيراً بين البادية عن اسم الشيخ زايد . وزار الشيخ زايد ابن سلطان آل نهيان فى مجلسه بمدينة العين حيث يجلس هو ومن معه على الأرض فى حلقة ، ولباسهم جميعاً واحداً ولا تستطيع أن تعرف الشيخ إلا من هيبته ونظر الجميع نحوه ومتابعة الشيخ فى وقوفه لتحية القادمين وقيام الجميع معه(٦) .

جاء أول ذكر للشيخ رحمة بن مطر القاسمى مؤسس حلف القواسم فى الوثائق الهولندية عام ١٧١٨ كأحد قادة جيش الإمام سلطان بن سيف الثانى فى حصار قلعة هرمز . ففى فبراير من هذا العام كانت سفينة هولندية فى طريقها من بتافيا إلى بندر عباس . وعندما دخلت الخليج نفذت منها المواد الغذائية الطازجة . وقرر بعض البحارة فيها أن يتوجهوا على مركب صغيرة إلى جزيرة لارك لتلبية حاجاتهم ، وأوقفتهم سفينة مراقبة عمانية ظناً منهم أن هؤلاء الهولنديين برتغال . ونقل هؤلاء البحارة إلى قيادتهم فى جزيرة هرمز . وهذا وصف لمقابلة هؤلاء البحارة الهولنديين لقادة الجيش العمانى :

« حوالى الساعة الثامنة قادنا ذلك الكابتن وبعض الضباط الآخرين إلى القائد العمانى ، ومررنا بصف من الجنود عددهم ألف جندى مسلح يحيون ببندقياتهم . وذهبنا إلى مبنى قديم شبه متهدم حيث شاهدنا رجلين جالسين على سجادة جميلة يحملان السيوف والدروع وبدا لنا أنهما من الأعيان . ودعانا

الرجلان للجلوس على السجادة بجانبهما وسألانا عن جنسيتنا فأجبنا أننا من هولندا وأننا نخدم الوكالة الهولندية فى بندر عباس . وسألنا أحدهم عن الجهة التى قدمنا منها وأجبنا أنا قادمون من بتافيا ووجهتنا بندر عباس . ثم سألانا عن طريقة معاملتنا فى جزيرة لارك وأجبته أنها حسنة وأننا مدينون لهم بالشكر . ثم سألنى عن سبب قدومنا إلى لارك وأعطانا رسالة منهما إلى الوكيل الهولندى فى بندر عباس وسمح لنا بالمغادرة. ثم غادرنا ومررنا بصف من الجنود إلى حيث كان الكابتن . وهنالك دعينا لتناول الغداء . وبعد الطعام غادرنا إلى مركبنا»(٧) .

ومن قراءة هذه الرسالة التى سلمت لهؤلاء البحارة الهولنديين يتضح أنها من القائد ناصر بن عبد الله الحبسى والشيخ رحمة بن مطر القاسمى وتقول هذه الرسالة:

« بعد التحية نؤكد لكم برسالتنا صداقتنا تجاهكم . أما من حيث احتجاز رجالنا للمركب الشراعى فى لارك وهى تحت حكم الأمام فقد حدث ذلك نتيجة لجهلهم تماماً ما إذا كان البحارة من الهولنديين أو الإنكليز أو البرتغاليين أو الفرنسيين أو الدنماركيين . وفور علمنا بأنهم هولنديون أطلقنا سراحهم وقد أمرنا الإمام أن نحترم الشركة الهولندية الموقرة فى جميع المسائل وعلينا الطاعة »(٨) .

وقد عاصر الشيخ رحمة بن مطر القاسمى الحرب الأهلية فى عمان التى اندلعت بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف اليعربى . وتزعم الشيخ رحمة قبائل

جلفار والظاهرة وإقليم الشميلية وانضم إلى الحزب الغافرى فى عام ١٧٢٣ . وقد كتب سرحان بن سعيد فى مخطوطته كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة وهو معاصر لهذه الأحداث ما يلى فى العام ١٧٢٣ :

« وأقام محمد بن ناصر بالرستاق وأشهر أن الأمام هو سيف ابن سلطان وهو مع ذلك غير بالغ الحلم . ووصل رحمة بن مطر بن رحمة الهولى بقدر خمسة آلاف من بدو وحضر ومنهم من لا يعرف العربية ولا يعرف صديقه من عدوه » .

ويتابع صاحب كشف الغمة حديثه عن نشاط الشيخ رحمة بن مطر القاسمى فيقول :

وكان خلف بن مبارك المعروف بالقصير قد قهر حصنى بركا وعسكر فيه ومعه بنو هناة . فأمر محمد بن ناصر الغافرى الجيش بالسير إلى بركا فسار رحمة بن مطر الهولى بقومه . وثم ورد كتاب من فرع الدرمكى من بنى هناة إلى رحمة بن مطر يقول : إنك لا تصل إلينا فنحن واصلون إليك على سبيل التهدد . فلما قرأه رحمة وعرف معناه أمر بالسير إلى بركا . والتقاهم رحمة بمكان يسمى القاسم فوثب عليه قضيب الهولى عل فرس والقوم على أثره فقتل منهم عشرة رجال وانكسر أصحاب فرع وجرح قضيب جرحا هينا .

وسار رحمة بالقوم . ثم إنه بعث عيونا فوجدوا خلف بن مبارك القصير قد طلع بقومه برا وبحرا بجيش لا يعلم عدده إلا الله . وكان عدد القوم الذين هم أصحاب محمد بن ناصر خمسة عشر ألف من بدو وحضر فالتقوا غربى بركا فوقعت

بينهم معركة عظيمة . وكانت عند أصحاب رحمة مدافع فضربوا الخشب التى بالبحر وانكسر خلف بن مبارك وأصحابه . ورجع رحمة إلى بلده »(٩) .

وقد ورد اسم الشيخ رحمة بن مطر أيضاً فى يوميات الشركة الهولندية خلال شهر أكتوبر عام ١٧٢٨ أثناء قصة التنافس على امتلاك جزيرة هرمز نتيجة الفوضى التى دبت على الساحل الإيرانى لسقوط الدولة الصفوية عام ١٧٢٢ ، إذ حدث تنافس لامتلاك جزيرة هرمز بين الشيخ رحمة بن مطر القاسمى والشركة الهولندية والشركة الإنجليزية . تقول اليوميات الهولندية :

« أرسلنا جورج جوتشى مندوبنا للتفاوض حول حصولنا على القلعة وجزيرة هرمز حسب إمكانيات الشركة والقضاء على محاولة الإنجليز وقد حمل مندوبنا معه خاتم الشركة والكثير من الهدايا . وجاءت طلقات المدافع من قلعة هرمز ترحب بمقدمنا. وقد وجدنا هنالك إلى جانب مندوب الإنجليز منافس آخر وهو الرجل الثرى الشيخ رحمة بن مطر الذى يطمع فى الحصول على الجزيرة والقلعة . ويبدو أن أهل هرمز لا يفضلون كثيراً مطالب الشيخ رحمة . ولقد علمت أن الشيخ رحمة حاكم جلفار الغنى يحاول جاهداً لامتلاك الجزيرة. وهو قادر على العطاء لأن هذا الرجل معروف أنه من أكبر وأكثر التجار المحليين العرب »(١٠) .

وفى يوليو ١٧٣٦ جاء فى وثائق جمبرون نبأ وفاة الشيخ راشد فى باسيدو وشاع خبر أن قوة من الفرس أرادوا القبض على زوجته الشيخة بيبى ومصادرة ما لديها من حلى وأموال . وقد أغضب ذلك الخبر القبائل العربية على الساحل

الفارسى والشيخ رحمة بن مطـر . وكـانت زوجـة الشـيخ راشـد إمـرأة ذات إرادة وعقل راجح ولجأت إلى الشيخ رحمة بـن مطـر وغـيره مـن شـيوخ العـرب . وقـد جاءت السفن محملة برجال القبائل العربية وكثير من عـرب جلفـار لنجدتهـا وقـد نجح تهريبها إلى جلفار(١١) .

وفى أثناء الحملة الفارسية التى أرسلها نادر شاه إلى عمان تلبية لطلب الإمام الشاب سيف بن سلطان الثانى عام ١٧٣٧ علـى أثـر هزيمتـه أمـام منافسـه الإمـام بلعرب بن حمير يظهر مرة أخرى اسم الشيخ رحمة بـن مطـر القـاسمى زعيمـاً جمـع القبائل فى شمال عمان لمقاومة هذا الغزو الفارسى . وقد شغلت هذه الحملة الفـترة ما بين عام ١٧٣٧ وحتى عـام ١٧٤٧ . فـى بدايـة عـام ١٧٣٧ وصلـت الحملـة الفارسية إلى جلفار ولحق بها الإمام سيف بن سلطان الثانى . وقاوم الشـيخ رحمـة ابن مطر القاسمى القوات الفارسية ولكنه وقـع أسـيرا فـى يدهـم . ونقـل إلى بنـدر عباس. وبعد فشل هذه الحملة أعيد الشيخ رحمة بن مطر إلى جلفار فى نهايـة عـام ١٧٣٨(١٢) .

وقد غضبت عمان من تصرفات الإمام سيف بن سلطان الثانى الذى جلـب على البلاد مصائب الغزو الفارسى . واختار العلماء وزعماء القبـائل إمامـاً جديـداً هو سلطان بن مرشد اليعربى فى عام ١٧٣٨ . وحاول نادر شاه فـى عـام ١٧٤٠ إرسال حملة فارسية أخرى إلى عمان ولكن ثورة البحارة العـرب فـى أسـطوله فـى بندر عباس فى هذا العام حالت دون قيامه بهذه الحملة . وقـد تطلـب إخمـاد هـذه الثورة العربية فى البحرية الفارسية عاماً كاملاً . وقد أرسل قادة هذه الثورة قباطنـة السفن الفارسية العرب رسالة إلى الوكيل الإنجليزى فى بندر عباس وهم رحمـة بـن شاهين وإبراهيم بن على ومحمد بن عبد الله يحـذرون الإنجليز فيهـا مـن المشـاركة بمراكبهـم فـى إخمـاد ثورتهـم حسـب طلـب السـلطات الفارسـية . وهـدد هـؤلاء

الشيوخ العرب الإنجليز بما سيصيب سفنهم وتجارتهم من خسران . وبدأ نادر شاه فى عام ١٧٤٢ يعد أسطولاً جديداً لتحقيق أحلامه فى غزو عمان . اشترى بعض قطعة من الشركة الهولندية والشركة الإنجليزية . وبنى القطعة الأخرى فى ميناء بوشهر بعد أن جلب لها الأخشاب من جبال بحر قزوين على بعد ألف كيلو متر(١٣) .

وفى فبراير عام ١٧٤٢ حاصر الإمام سلطان بن مرشد الشاب سيف بن سلطان الثانى فى قلعة مسقط . وهرب سيف بن سلطان . ومرة أخرى اتجه إلى نادر شاه يستنجد به . وكان قد تم انجاز بناء الأسطول البحرى الفارسى الجديد فى الخليج ، ووصلت قوات الحملة الجديدة إلى جلفار . وبعد مقاومة من قبائل الظاهرة والشيخ رحمة بن مطر القاسمى لهذه الحملة لجأ الشيخ رحمة بن مطر إلى المرتفعات فى منطقةروس الجبال(١٢) . وظهرت شخصية الوالى أحمد بن سعيد فى الدفاع عن مدينة صحار وقد استشهد الإمام سلطان بن مرشد فى عام ١٧٤٣ وهو يحاول فك الحصار عن قلعة صحار .وتمكن الوالى أحمد بن سعيد من تحرير مسقط عام ١٧٤٦ وخرجت بقايا الحملة الفارسية من عمان نهائياً فى أغسطس ١٧٤٧ بعد أن جاءت أنباء اغتيال نادر شاه فى يونيو ١٧٤٧ .

وبرز أثناء كفاح عمان ضد هذه القوات الفارسية زعيمان الأول أحمد بن سعيد والى صحار ، كما برز اسم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى حاكم جلفار وبطل المقاومة فيها . ومنذ عام ١٧٤٩ طمح الوالى أحمد بن سعيد وقد خضعت له القبائل فى ساحل الباطنة ومسقط ، وبعد أن اختفى من مسرح الحياة السياسية فى عمان الإمام سيف بن سلطان الثانى والإمام سلطان بن مرشد ، فى أن يحكم عمان . وبدأ سلسلة من الحملات لتوسيع نفوذه وسلطته وإخضاع القبائل لحكمه. ولكن برزت أمامه عقبتان كبيرتان الأولى رفض الشيخ رحمة بن مطر القاسمى

الخضوع لزعامته ورغبة الشيخ رحمة وقادة حلفه فى الاستقلال . والثانية وجود الإمام بلعرب بن حمير فى نزوى . وكانت معركة البثنة فى الخمسينات فى وادى حام قرب الفجيرة حاسمة فى حصول حلف القواسم على استقلال . وبدأت مرحلة جديدة فى التاريخ العمانى . وقضت هذه المعركة على آمال أحمد بن سعيد فى توحيد عمان كما كان الحال ايام مجد دولة اليعاربة . وقد سجل هذه المعركة المؤرخ العمانى ابن رزيق فى مخطوطته الفتح المبين إذ يقول :

« ولما انتظم سلك عمان للإمام الحميد أحمد بن سعيد غاظ النزارية شأنه ، فمضى أكابر اليعاقيب إلى بلعرب بن حمير اليعربى وهو يومئذ ببلدة البزيلى من القاهرة وقالوا له لم تركت هذا الأمر لغيركم وقد جالدت عليه سيف بن سلطان اليعربى والإمام سلطان بن مرشد وهما أقرب الناس إليك نسبا . فما برحوا يترددون عليه وهو يماطلهم حتى وقعت بين الإمام أحمد بن سعيد وأهل الصير ملحمة عظيمة بالبثنة . وذلك أن أهل الصير أجمعوا على حرب الإمام أحمد بن سعيد فحشدوا خلقاً كثيراً وأرادوا أن يهجموا على صحار ، فالتقاهم الإمام احمد بن سعيد بمن معه من الجند فكانت الملحمة بينهم بالبثنة ثم رجع أهل الصير إلى الصير . ورجع عسكر الإمام إلى صحار »(١٤) .

وتركزت همة الوالى أحمد بن سعيد الآن بعد هزيمته أمام القواسم واستقلالهم عنه فى التغلب على وجود الإمام بلعرب بن حمير . وقد حسم الموقف معركة فرق عام ١٧٥٣ فى نزوى . وقتل الإمام بلعرب بن حمير . واجتمع العلماء وشيوخ القبائل وأعلنوا محرر عمان من الفوضى ومن الغزوة الفارسية أحمد بن سعيد إماماً على عمان .

أعقب مقتل نادر شاه حالة من الفوضى فى إيـران . وتنـازعوا علـى الحكـم وفى ظل هذه الفوضى تنازع النفوذ فى إقليم فـارس منـذ عـام ١٧٥١ شـخصيتان هما كريم خان زند فى شيراز وناصر خان فى إقليم لار . وكان الوضع فـى بنـدر عباس وما حولها قلقاً . وسيطر قائد بحرية نادر شاه ملا على شاه على بندر عبـاس وهو عربى من ميناء كنج . واصبح فى حوزته أكبر قوة بحريـة فـى الخليـج . كمـا استقلت القبائل العربية على الساحل الإيرانـى بشؤونها . ومـن هـذه القبـائل بنـى معين فى جزيرة الجسم وآل على فى شارك وجزيـرة قيـس . والقواسـم فـى لنجـة ودوان وبستانه وشيغوه . وبنى حماد فى نخليوه ومقام ومرباغ قلعة وجزيرة الشـيخ شعيب . أما قبيلة العبيد لى فكان نفوذها فى شبكوه وشيغوه وعرمكـى وشـيروه والشيخ . وكان المرازيق فـى موغـوه وبسـتانه وجزيـرة فـارور . وسـيطرت قبيلـة النصور فى طاهرى وكنجون . وتغلبت قبيلة الحرم فـى عسـيلوه ونابـاند . وكـان آلبوفلاسة من بنى يـاس فـى جزيـرة هنجـام . وفـى مينـاء بوشـهر سـيطرت قبيلـة المطاريش العمانية . وفى شمالهـا تغلـب شـيخ مـن الزعـاب علـى بنـدر رج . وقـد وصف هذه القبائل العربية الوكيل الهولندى كنيبهاوزن بعد ما استقر به المقـام فـى جزيرة خارج عام ١٧٥٦ وشرح قتالها فيما بينها وقال أن هذه القبـائل العربيـة لـو اتحدت فيما بينها لتمكنت من أن تعيد سيطرة العرب على الساحل الإيرانى كاملـة كما كان العهد أيام مملكة هرمز العربية .

وفى أثناء هذا الصراع على السـلطة فـى الجـزر ومنطقـة بنـدر عبـاس ألقـى الشيخ رحمة بن مطر بثقله فى تأييد ملا على شاه ضد عدوه ناصر خـان فـى لار . وتزوج فى عام ١٧٥١ من ابنته . بينما وقفت قبيلة بنى معـين فـى جزيـرة الجسـم بقيادة عبد الشيخ إلى جانب ناصر خـان حـاكم لار . وكـان عبـد الشـيخ ضـابط بحرى سابق وأحد قادة التمرد العربى فى القوة البحرية الفارسـية عـام ١٧٤٠ أيـام نادر شاه بسبب الحملة الفارسية على عمان .

وفى عام ١٧٥٥ كتب الوكيل الهولندى كنييهاوزن من جزيرة خارج معلومات عن الشيخ رحمة بن مطر وقال :

«منذ عامين قام الشيخ رحمة بمساعدة ملا على شاه أدميرال جمبرون الذى ينتسب إليه بالزواج من ابنته . وقد تغلبوا على ميناء لفت فى جزيرة الجسم وكان هذا الميناء فى يد بنى معين منذ أيام نادر شاه . وقد قاوم بنى معين ستة أشهر ولم يستسلموا إلا بعد موت شيخهم المفاجىء على الشيخ»(١٥).

وقد ساعد ملا على شاه بأسطوله الشيخ رحمة بن مطر عام ١٧٥٨ حينما هاجم الإمام أحمد بن سعيد القواسم فى ميناء دبا .

وكانت آخر أخبار الشيخ رحمة بن مطر فى يناير ١٧٦٠ حينما غضب من زواج أحد بنات ملا على شاه من ملا حسين . احتل الشيخ رحمة جزيرة هرمز وقلعتها لمدة ١٤ يوما وأخذ ما يقارب من ١٢ ألف روبية من قلعتها . وكان لهذا النزاع بين الحليفين أثره المباشر إذ أن أهل هرمز نتيجة تقدم خان لار وانتصاراته فى بندر عباس سلموا قلعة هرمز لأخية جعفر خان . وقبض جعفر خان فى شهر فبراير ١٧٦٠ على ملا على شاه .

وحدث صراع فى الجزر بين القواسم وبنى معين . وحاصرت فى شهر مارس ١٧٦٠ قبيلة معين يساعدها آل على فى شارك قلعة لفت فى جزيرة الجسم. وكانت هذه القلعة فى يد الشيخ رحمة بن مطر . وأخذ عرب جلفار المركب رومانيا أقوى قطع أسطول ملا على شاه وهاجموا بها عرب بنى معين فى جزيرة الجسم . وجرت معركة بين المتصارعين فى مياه لنجة(١٦) .

وهنا وسط هذه الاضطرابات يختفى اسم الشيخ رحمة بن مطر من مسرح الأحداث ويظهر اسم أخيه الشيخ راشد بن مطر فى رئاسة حلف القواسم . ولكن يظهر فى ١٨ سبتمبر ١٧٦١ اسم الشيخ رحمة بن مطر فى يوميات جمبرون الإنجليزية وأنه قد وصل فى هذا اليوم إلى بندر لنجة .

مدينة رأس الخيمة الناشئة :

ذكر أحمد بن ماجد مدينة رأس الخيمة كأحد بنادر الخليج فى أرجوزته المشهورة بنادر خليج فارس فى القرن الخامس عشر . ولكنها لم تكن عامرة ولا مسكونة . وعاشت قرية بسيطة فى ظل جلفار . وبعد أن دارت معارك كثيرة حول جلفار أيام قيام دولة اليعاربة لطرد البرتغال منها وطرد الفرس الذين حاولوا احتلالها أيام نادر شاه فى الفترة ما بين ١٦٢٢ و ١٦٣٣ ، وكذلك المعارك التى دارت حولها أيام غزوة نادر شاه على عمان بين عام ١٧٣٧ وعام ١٧٤٧ تحطمت أسوارها وقلعتها . وهدمت بيوتها . وبدأت هجرة القبائل العربية سواء الوافدة من الساحل الإيرانى أو القادمة من عمان ونجد إلى جلفار تتخذ من مدينة رأس الخيمة الواقعة جنوب جلفار مقراً لها . وسرعان ما زاد العمران فيها حينما اتخذها الشيخ رحمة بن مطر القاسمى عاصمة لحلف القواسم . وقد بنيت المدينة الجديدة من حجارة أنقاض جلفار التاريخية التى بدأت تختفى معالمها . وظهر فى رأس الخيمة ميناء جديد صالح لرسو السفن فى خورها . وقد أطلق الهولنديون على هذه المدينة الناشئة أول الأمر فى عهد الشيخ رحمة بن مطر اسم صير . والواقع أن الصير اسم المنطقة التى تقع فيها مدينة رأس الخيمة . وقد كتب الوكيل الهولندى عام ١٧٥٦ كنيبهاوزن يصف مدينة الصير :

« الصير مدينة كبيرة محصنة بطريقة محلية وبها بعض قطع المدافع . وتسكنها قبيلة من الهولة تدعى القواسم وكانوا فى

الماضى تابعين لإمام مسقط ولكنهـم الآن لا يعتنـون بنفـوذه . وقد قام الإمام بعدة حملات ضدهـم لإخضـاعهم ولكـن دون جدوى و لم يستطع التغلب على الشيخ المسمى كايد او رحمـة ابن مطر . ويعتبر هذا الشيخ أقوى شيوخ الهولـة ولديـه ٤٠٠ رجل مسلح بالبنادق فى الصير التى لديها ميناء تجد فيه السفن الكبيرة مرسـاها . وبالميناء ٦٠ سفينة أغلبهـا كبـيرة ومجهـزة للسـفر إلى مخـا . ويوجـد فـى الصـير تجـارة رائجـة وكذلـك التعامل فى اللؤلـؤ وأنـواع التجـارة المطلوبـة لـدى البـدو فـى الصحراء »(١٧) .

وبدأت المدينة الجديدة رأس الخيمة تفرض اسمها فى عهـد الشـيخ صقـر بـن راشد . وجاء أول ذكر لها فى وثائق حكومة بومباى البريطانية فـى عـام ١٧٩٧ . وقد كتبت على نحو بدائى لأول مرة Razil Khima(١٨) .

وانتشر اسم المدينة الناشئة وجاء أسمها لأول مرة فـى الوثـائق البريطانيـة فى عام ١٧٩٧. وذاع اسم رأس الخيمة فى التاريخ العربى الحديـث لارتباطهـا بالقواسـم بعـد اعتنـاقهم مذهـب أهـل السـلف الوهـابى وترصدهـم للسـفن البريطانية عند مدخل الخليج وتعرض هذه المدينـة بعـد ذلـك لهجمـات الحمـلات البريطانية وخاصة الحملـة الضخمـة عـام ١٨١٩ التـى حطمـت قلعتهـا وأسـوارها ومبانيها وأشعلت فيها النيران.

الهوامـش

(1) Penelope Tuson, The Records of the British Residency and Agencies in the Persian Gulf, London 1979, pp. 173 - 174 .

(2) B. J. Slot, The Arabs of the Gulf 1602 - 1784, Leidschendam, The Netherlands, second edition 1995, p. 425.

(3) ARA (Dutch General State Archives) VOC (Archives of the Dutch East India Company, Vol.1113, Fol. 214 - 229.

(4) Portugeuse Archives, Tore De Tombo, Lisbon, ANTT Moncoes, livro59, Fol. 88, Muscat 30 October 1648.

(5) ARA, VOC, Vol 1288, Fol. 441-442.

(6) Thesiger, W., Arabian Sands, London 1960. p. 220.

(7) ARA, VOC, Vol 1913, Fol.442-443.

(8) Ibid, vol. 1913, Fol. 437 - 438.

(٩) سرحان بن سعيد ، مخطوطة كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، نسخة المكتبة الظاهرية – دمشق ، ص .

(10) ARA, VOC, Vol 2114, Fol.3558.

(11) Ibid, vol. 2416, Fol. 1389-1392.

(12) IOR, (India Office Records, London), EGD Vol.4, p. 3- 5. 1737 & Vol. 23, p. 2 1738.

(13) Lockhart L., Nadir Shah, London 1938, p. 216.

(١٤) حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين فى سيرة السادة آلبوسعيديين ١٢٧٥ (١٨٥٨) تحقيق محمد مرسى وعبد المنعم عامر الطبعة الرابعة ص ٣٢٤ .

(15) ARA, VOC, Vol 2468, Fol.12.

(16) IOR, EGD 18-1, 1760.

(17) ARA, VOC, Vol 1304, Fol.383.

(18) IOR, EGD, 29-23, 1797.

سياسة ألمانيا تجاه الشريف حسين
فى الحرب العالمية الأولى

د. وجيه عبد الصادق عتيق(*)

ربما من المفيد للباحثين فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر التعرف على الوجه الآخر لعلاقة الشريف حسين بالقوى المتصارعة فى الحرب العالمية الأولى . وتكشف لنا الوثائق الألمانية خبايا علاقة الألمان بالشريف حسين خلال سنوات تلك الحرب كما تكشف عن ملامح سياستهم تجاهه . ومن دراسة وتحليل هذه الوثائق، يتبين لنا أن الألمان أخذوا يلتفتون بجدية إلى أهمية زعماء نجد والحجاز بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بعدة أسابيع . أما قبل ذلك ، فلم يضع ساستهم فى حسبانهم أن هؤلاء الزعماء فى استطاعتهم أن يلعبوا أدواراً مساعدة أو حيوية فى حسم أى صراع قد ينشب بين القوى الدولية ، ويعد هذا فى الواقع خطأ استراتيجياً ارتكبه الساسة الألمان منذ البداية فى حق أنفسهم عند وضع خطط احتمالات نشوب الحرب مع دول الوفاق . وأغلب الظن أن هذا الخطأ جاء نتيجة تصور خاطئ آخر تكون لدى القيادة الألمانية أنذاك وانتشر على نطاق واسع مفاده أن قوة ألمانيا الحربية قادرة على ردع أعدائها ، وفى إمكانها على وجه السرعة حسم الأزمات الطارئة التى قد تنشب بينها وبين هؤلاء الأعداء من دول الوفاق ، وأن هذه الأزمات لو نشبت فسوف تنحصر داخل القارة الأوربية ، ولن تتحول إلى حرب كونية واسعة النطاق ، يلجأ كل طرف فيها لاستقطاب القوى المحلية الصغيرة ضد الطرف الآخر .

وحتى عندما التفت الألمان إلى أهمية زعماء نجد والحجاز ، فقد جاء التفاتهم هذا من خلال حرصهم على إقحام الدولة العثمانية للدخول فى الحرب بجانبهم ، ومن منطلق المحافظة على أملاك هذه الدولة ونفوذها فى الشام ونجد

(*) الأستاذ المساعد للتاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب – جامعة القاهرة .

والحجاز . أى أن هذا الالتفات لم يكن عملاً هجومياً أو مبادرة يقطعون بها الطريق على أعدائهم بقدر ما كان عملاً دفاعياً قصد به الحيلولة دون انهيار الدولة العثمانية بعد دخولها الحرب إلى جانبهم ، ومتابعة لتحركات زعماء نجد والحجاز سواء أكانت ضد بعضهم البعض أو ضد العثمانيين . كما أن هذا الالتفات من جانب الألمان لم يبلغ حد العمل على الاستعانة بقدرات هؤلاء الزعماء المحليين فى الثورة على أعدائهم وطرد الإنجليز من الكويت والساحل المهادن وعدن فى وقت مبكر من قيام الحرب .

وتذكر ملفات وزارة الخارجية الألمانية أن أول التفات من جانب حكومة ألمانيا لزعماء نجد والحجاز فى الحرب حدث فى أواخر أغسطس ١٩١٤م . ويعود الفضل فى هذا إلى فنجنهايم Wangenheim سفير ألمانيا فى العاصمة التركية ، الذى نصح حكومته بالتقرب من زعماء المشرق العربى وكبار رجال العشائر فى الشام عن طريق تقديم الهدايا والرشاوى ، حتى يمتنع هؤلاء الزعماء عن عرقلة إعداد الحملة التركية على مصر . كما يعود الفضل إلى فنجنهايم فى لفت أنظار حكومته إلى أهمية أشراف الحجاز بصفة خاصة ، لما يحتلونه من مكانة دينية رفيعة فى نفوس المسلمين . واستأذن فنجنهايم حكومته فى أواخر أغسطس فى أن يستقبل بمقر عمله فى استنبول عددا من أشراف الحجاز الذين وصلوا من الحجاز فى زيارة للعاصمة التركية . وفى ٣٠ أغسطس ١٩١٤ م استدعى فنجنهايم - بعد موافقة حكومته على ذلك - هؤلاء الأشراف وأهداهم باسم الإمبراطور مبالغ متساوية من المال ، مقابل تعهدهم بتأييد ألمانيا وتركيا فى مناهضة الإنجليز(١) .

وفى الحقيقة ، جاء اهتمام الألمان بهؤلاء الأشراف فى إطار الاهتمام العام بزعماء المشرق العربى . ولم يكن هناك فى البداية اهتماماً خاصاً بمنطقة محددة أو بشخصية بعينها . ولم يبدأ هذا الاهتمام فى التحول من العام إلى الخاص إلا منذ النصف الأول من شهر سبتمبر ١٩١٤ م ، عندما اقترح أحد المستشرقين الألمان العارفين بشئون المشرق العربى على حكومته أن توجه عنايتها إلى استقطاب

الشريف حسين . واقترح هذا المستشرق أن تضغط حكومته على الدولة العثمانية لكى تعين الشريف حسين فى منصب شيخ الإسلام لما يمثله هذا الشريف من خلال مكانته الدينية من خطر على الخليفة العثمانى إذا نجحت بريطانيا فى تجنيده لصفها ضد الدولة العثمانية . وكعادة الخارجية الألمانية كانت تبعث بمثل هذه المقترحات إلى خبرائها المختصين لدراستها وتقديم رأيهم فيها .

وبعثت الخارجية تسأل البارون ماكس فون أوبنهايم Max Von Oppenhaim رئيس الوكالة الألمانية لاستخبارات الشرق حول جدوى الأخذ باقتراح تعيين الشريف حسين فى منصب شيخ الإسلام . وفى ١٤ سبتمبر رد أوبنهايم فى تقرير مطول رافضاً ذلك الاقتراح بحجة أن هذا سوف يغضب الأتراك كثيراً ، وبحجة عدم وجود حاجة لكسب الشريف حسين بهذه الوسيلة فى ذلك الوقت المبكر من الحرب . وقدم أوبنهايم بدلاً من ذلك اقتراحاً مضاداً يدعو لتقوية مركز الخليفة فى العالم الإسلامى من خلال حملة دعائية موسعة ، معتبراً أن هذا وحده كفيل بتحقيق الاستقرار للدولة العثمانية فى المشرق العربى(٢) .

وفى تقديرنا فإن رفض أوبنهايم تأييد فكرة تعيين الشريف حسين فى ذلك المنصب يدعونا للشك فى إخلاص ذلك الرجل للإمبراطورية الألمانية . إذ أن موقفه هذا أضاع على الأتراك والألمان فرصة ثمينة لكسب الشريف لصفهم فى هذه المرحلة من الحرب ، كما أضاع هذا الموقف فرصة ذهبية على الأتراك والألمان لقطع الطريق على محاولات الإنجليز الرامية للتقرب من الشريف حسين . ومما يدعونا للشك فى إخلاص أوبنهايم أن وزارة الخارجية الألمانية ، بناء على رفضه لذلك الاقتراح ، أغلقت تماماً باب الحديث فيه ، وبدلاً من ذلك راحت تبحث فى مشروع كان أوبنهايم نفسه يروج له بقوة داخل أروقة هذه الوزارة ، ويدعو هذا المشروع إلى قيام ألمانيا بحملة دعائية على نفقتها لتقوية مركز الخليفة العثمانى فى العالم الإسلامى . وعلى هامش تقرير أوبنهايم خط وكيل وزارة الخارجية الألمانية تسمرمان Zimmermann بقلمه يقول : « أوافق على اقتراح السيد أوبنهايم الخاص

بالحملة الدعائية »(٣) . وبذلك يكون أوبنهايم قد نجح فى توجيه مثل هـذا القـرار الخاص بسياسة ألمانيا تجاه الدولة العثمانية والمشرق العربى فـى تلـك الظـروف الدقيقـة الوجهة التى كان يريدها لنفسه ، حيث كان يتطلع لأن يتولى بنفسه الإشـراف مـن الشام على هذه الحملة الدعائية ، الأمر الذى تحقق له فيما بعد كما سيتضح لنا .

إلا أن آراء ومقترحات أوبنهايم كانت تجد فى بعض الأحيان من يفندها من بين المسئولين الألمـان العـارفين بشئون الدولـة العثمانيـة والمشـرق العربـى. وكـان البارون فنجنهايم سفير ألمانيا فى تركيا والجنرال ليمان فون ساندرس رئيـس البعثـة العسكرية الألمانية فى الجيش العثمانى علـى رأس هـؤلاء المسـئولين الذيـن عـارضوا كثيراً توجهات أوبنهايم . إذ كان من رأيهم ، عندما علموا باقتراح أوبنهايم ، أنـه ليس من الحكمة تجاهل سيد الحجاز ، فى الوقـت الـذى يجـرى فيـه إعـداد الحملـة التركية على مصر على قدم وساق فى الشام . واقترح فون ساندرس على حكومته أن ترسل إلى العقيد كريس رئيس هيئة أركان الحملة التركية فـى الشـام عـددا مـن القلادات والأوسمة الألمانية التى هى من الذهب الخـالص لكـى يتـم توزيعهـا باسـم إمبراطور ألمانيا على كبار الزعماء العرب وفى مقدمتهم الشريف حسين(٤) .

وكان ياجوف Ygow وزير خارجية ألمانيا يتوقع أن يرفض هؤلاء الزعمـاء الأوسمة والقلادات الألمانية ، خاصة وأنهـا جميعـاً كـانت تحمـل شـكل الصليـب . وراح يستفسر من فون ساندرس صاحب الاقـتراح فـى برقيـة عاجلـة حـول ذلـك الأمر . إلا أن ياجوف فوجئ برد يأتيه يؤكد أن هؤلاء الزعماء لـن يبـالوا بمـا هـو منقوش على هذه الأوسمة والقلادات بقدر ما يحرصون على إمتلاكها ذهباً(٥) .

ومن الواضح أن الحكومة الألمانية كانت حتى أواخر أكتوبر ١٩١٤ م تفتقر لاستراتيجية محددة المعالم لكى تتعامل من خلالها مع الشريف حسين وكبار زعمـاء المشرق العربى . بدليل أن وزارة الخارجية أخذت باقتراح أوبنهـايم الداعـى لحصـر اهتمام ألمانيا بالمشرق العربى فى حـدود اهتمامهـا بـالرأى العـام الإسـلامى . وفـى نفس الوقت أخذت باقتراح ليمان فون ساندرس الداعى للاهتمام بالزعماء العـرب

المحليين . ووافق الإمبراطور الألمانى فى ١٤ نوفمبر ١٩١٤ م على منح هؤلاء الزعماء تلك الأوسمة والقلادات التى اقترحها فون ساندرس ، والتى تقرر أن يتسلمها العقيد كريس فى مقره بدمشق لكى يوزعها بنفسه عليهم نيابة عن الإمبراطور فيلهم الثانى(٦) .

ولقد حاولت وزارة الخارجية الألمانية حسم هذا التضارب ، الذى كان يعكس قلة خبرتها بالشئون العربية . وأرسلت فى أوائل نوفمبر ١٩١٤ م تستطلع رأى أحد مبعوثيها فى الشام فى كبار زعماء المشرق العربى . وفى مذكرة مطولة وصلت من دمشق إلى برلين فى أواخر شهر نوفمبر ذكر المبعوث بروفر Pruefer "أن الشريف حسين إنجليزى الميول حتى النخاع ، لكنه تحت السيطرة الآن بفضل سياسة الدولة العثمانية الحازمة معه"(٧) . وفى الحقيقة أحدث تقرير بروفر هذا حول الشريف حسين وميوله الإنجليزية ردوداً واسعة داخل وزارة الخارجية ، التى قررت - لكن بتكاسل مثير للدهشة - وضع خطة تعامل خاصة بالشريف بعيدة عن خطط التعامل مع الزعماء العرب الآخرين ، ومنفصلة كذلك عن مشاريع دعم مركز الخليفة العثمانى بين الرأى العام الإسلامى .

ومرة أخرى كلفت الخارجية الألمانية أوبنهايم بوضع خطة عاجلة لاستقطاب الشريف حسين وإبعاده عن السقوط فى أحضان الإنجليز . وبدلاً من أن يمعن البارون أوبنهايم الفكر فى وضع خطة تعتمد على الاتصال المباشر بالشريف حسين وإغرائه بالابتعاد عن الإنجليز ، أو يجتهد فى صياغة عروض مُغرية تفتح آفاق المستقبل أمام الشريف ونفوذه السياسى وتجعله يشعر بأن توسيع هذا النفوذ مرتبط بانتصار دول الوسط فى الحرب ، إذ بالبارون يضع خطة تقوم على وضع الشريف تحت المراقبة اللصيقة للسلطات الألمانية ورجال الوكالة الألمانية للاستخبارات التى يرأسها ، وذلك من خلال قنصلية ألمانية يتم إنشائها لهذا الغرض فى جدة . ورشح أوبنهايم من جانبه الأستاذ ليتمان Prof. Dr. Littmann المستشرق بجامعة جوتنجن لتولى منصب القنصل ، كما رشح شخص مصرى

يدعى على أحمد عنانى ، كان يعمل مدرساً للغة العربية بجامعة برلين ، لكى يعاون ليتمان فى القيام بمهام واجباته الرسمية . أما بخصوص الجهاز الرقـابى ، الـذى كـان من المفترض أن يتحرك تحت الغطاء الدبلوماسى فى تلك القنصلية ويبلـغ الخارجيـة الألمانية أولاً بأول بكل ما يدور فى الحجاز ، فقد تـولى أوبنهـايم أيضـاً ترشـيحهم من بين رجاله(٨) . ولاقت خطـة أوبنهـايم عنايـة بعـض كبـار موظفـى الخارجيـة الألمانية ، الذين عكفوا على دراستها لوضعها موضع التنفيذ عندما تحين الفرصة .

وتعكس الوثائق الألمانية التى تتعلق بتلك الفترة مدى انقسـام المسئولين فـى برلين عند وضع خطط السياسة الألمانية تجاه العرب . حيث انقسموا على أنفسـهم على نحو بيّن فى إختيار أفضل السبل المؤدية لإنجاح تلك السياسة . وقـد بـرز هـذا الانقسـام عندمـا حـذر فنجنهـايم ، مـن خـلال خبرتـه الواسـعة بشـئون الشـرق ، حكومته من الإقدام على تحمـل أعبـاء حملـة الدعايـة للخليفـة العثمـاني فـى العـالم الإسلامى، راجيا ترك هذه المسألة للأتراك لكونهم مسلمين قادرين على التأثير فـى أقرانهم من المسلمين أكثر من أى جهاز دعائى ألمانى آخـر قـد يثـير نشـاطه بينهـم حفيظتهم ، ويتيح للأعداء فـرص إفشـال هـذه الحملـة ، ومـن ثـم إحـداث نتـائج عكسية(٩) .

وكاد فنجنهايم أن يكسب لوجهة نظره هذه فريقاً من كبار رجال الخارجية الألمانية المختصين بالشئون العربية . إلا أن فريقـاً ثانيـاً داخـل هـذه الـوزارة انـبرى يدافع عن مشروع حملة الدعاية للخليفة ، مطالبين أن يبدأهـا القنـاصل الألمـان فـى القدس وبغداد دون أدنى تأخير ، كما طلب هذا الفريق فنجنهـايم بـأن يتدخـل لـدى السـلطات التركية لكى ترفع أى قيود على تحركات العميل الألمانى بروفر فى الشام والجزيرة العربية(١٠) .

ولم يكن هذا الانقسام بين هذين الفريقين ، والصراع الخفى بـين فنجنهـايم وأوبنهايم ، سوى بعض من صـور الضعـف الـذى اكتنـف السياسـة الألمانيـة تجـاه الشرق العربى خلال تلك الفترة ، والتى أدت إلى ارتبـاك وتـردد الحكومـة الألمانيـة فى اتخاذ قرارات مصيرية فى أوقات كانت تتطلب سرعة الحسم . ولعـل مـا كـان

يزيد من ارتباك الحكومة الألمانية فى المشرق العربى هو حساسية الموقف العثمانى داخل هذه المنطقة . والشعور بأن يد العملاء الألمان هناك مغلولة وتحت المراقبة من قبل السلطات العثمانية .

ثم أدى انشغال الألمان الشديد بترتيبات إعداد الحملة التركية على مصر فى الفترة الانتقالية بين عامى ١٩١٤ - ١٩١٥ م إلى تأجيل اتخاذ القرار المناسب فى مسألة القنصلية الألمانية فى جدة ، وكذلك إلى عدم التوصل لأفضل سبل التعامل مع الشريف حسين فى الوقت المناسب . حيث ساد لدى الكثير من الألمان اعتقاد بأن نجاح هذه الحملة فى طرد الإنجليز سوف ينهى مشاكلهم ومشاكل الدولة العثمانية فى المشرق العربى من جذورها(١١) .

إلا أن فشل هذه الحملة فى اجتياز قناة السويس وعودة قواتها مدحورة إلى الشام أوائل فبراير ١٩١٥ م ، ونجاح الإنجليز من قبل فى احتلال البصرة ، أصاب فنجنهايم شخصياً بالكثير من الإحباط ، الذى دفعه بشكل مفاجئ إلى التسليم على مضض بوجهات نظر أوبنهايم فى معالجة الوضع المتدهور فى المشرق العربى، كما ترتب على هذا الإحباط علو كعب أوبنهايم ونظرياته فى أعين كبار المسئولين فى وزارة الخارجية الألمانية . وعندئذ وجدها أوبنهايم فرصة لأن يتقدم فى ٢ مارس ١٩١٥ بمشروع مفصل، يقوم مرة أخرى على فكرة الحملة الدعائية فى العالم الإسلامى بأسره لمعالجة الوضع المتدهور للدولة العثمانية فى المشرق العربى ، والتصدى لمحاولات تقارب الإنجليز من الشريف حسين ، تلك المحاولات التى كان الألمان يشعرون بوجودها ، دون أن يعرفوا شيئا عن مضمونها(١٢) .

وبالفعل استطاع أوبنهايم أن يدخل فى روع عدد لا بأس به من المسئولين الألمان أن مشروعه الدعائى واسع النطاق جدير بأنه يوقف ذلك التدهور الذى أخذ ينتشر فى أوساط الرأى العام العربى فى أعقاب فشل الحملة التركية على مصر . ومن ثم قررت الحكومة الألمانية فى ١٥ مارس ١٩١٥ م الموافقة على ذهاب أوبنهايم على رأس بعثة من عدة أفراد إلى الشام ليمسك بزمام الحملة

الدعائية هناك ، واضعة تحت يده مبالغ طائلة من المال للإنفاق منها على هذه الحملة ، التى كان من المفترض أن تؤدى أيضاً - طبقاً لما وضعه أوبنهايم من تصورات - إلى نشوب ثورة عارمة فى أنحاء العالم الإسلامى فى وجه بريطانيا وروسيا وفرنسا وإيطاليا ، فى حالة إعلان هذه الأخيرة الحرب على ألمانيا . كما كان من المفترض أن تحول هذه الحملة الدعائية دون تقارب الشريف حسين مع الإنجليز . وبناء على هذا التصور الأخير خولت الحكومة الألمانية لأوبنهايم الاتصال المباشر بالشريف حسين ، كما أطلقت يداه فى إجراء المباحثات التى يراها مناسبة معه(١٣) .

وبينما كان أوبنهايم يعد نفسه فى برلين للرحيل إلى الشام عاد وطرح مرة أخرى على المسئولين فى الخارجية الألمانية فكرة مراقبة الشريف حسين عن طريق إنشاء قنصلية ألمانية فى جدة . واقترح أوبنهايم هذه المرة أن يتولى منصب القنصل فيها أحد أعوانه من اليهود ويدعى بروبستر Proebster ، الذى كان من المفترض أن يقيم صداقة حميمة مع الشريف حسين ، وأن يبعث بتقارير مفصلة عن تحركات الشريف وصلاته أولاً بأول إلى الخارجية الألمانية عن طريق أوبنهايم فى الشام ثم عن طريق فنجنهايم فى استنبول .

إلا أن السلطات التركية عارضت فكرة إنشاء القنصلية الألمانية فى جدة فى ذلك الوقت ، خوفاً من أن يؤدى هذا العمل إلى إثارة غضب الشريف حسين ، أو أن يؤدى شعوره بالمراقبة من قبل الألمان إلى إثارته وإقدامه على الاتفاق مع الإنجليز . ومما لا شك فيه أيضاً أن فشل الحملة التركية على مصر وإرسال أوبنهايم وبعثته إلى الشام قد أدى إلى توتر العلاقة بين الأتراك والألمان . ففى أعقاب هذه التطورات عبر العديد من المسئولين الأتراك عن ضيق صدورهم من تدخل الألمان - من أمثال ليمان فون ساندرس - فى شئونهم . كما ساورتهم شكوك بأن ألمانيا تسعى لإقامة علاقة مباشرة من خلف ظهورهم مع الزعماء المحليين فى المشرق العربى ، وأنها ربما تعمل ضد مصلحة الدولة العثمانية فى هذه

المنطقة . أو ربما تخطط لبسط سيطرتها على كـل الأراضـى العثمانيـة . وقـد تـولى أنور باشا مسئولية إبلاغ سفير ألمانيا فى استنبول بفحوى تلـك المخـاوف ، حيـث أبلغه فى ٢ إبريل ١٩١٥ م باعتراض الحكومة التركية على قيام القناصل الألمان فى الشام بالاتصال دون إذن من السلطات العثمانية بالزعمـاء المحليـين للعـرب ، كمـا أبلغه بمعارضة الحكومة العثمانية لافتتاح القنصلية الألمانية فى جدة(١٤).

وقد أبدى فنجنهايم لحكومته تفهمه لمخاوف الأتـراك ، وطلـب منهـا الحـد من نشاط أوبنهايم وبعثته المثيرة للجدل فى الشام والحجاز . كما اقترح أن يشارك الأتراك بشكل مكثف فى الحملة الدعائية فـى العـالم الإسـلامى ، وأن يقتصـر دور أوبنهايم على التخطيط والإشراف ، وأن يبذل المسئولون الألمان كل ما فى وسعهم لكى يبدو الأمر أمام الجميع وكأن ألمانيا وتركيا تعملان يد فى يد(١٥) .

إلا أن أوبنهايم كان قد سار فى تنفيذ خطته عدة خطوات إلى الأمام ، غـير عابئ بمخاوف الأتراك . ونجح منذ أوائل مايو ١٩١٥ م فى إقامة علاقة وطيدة مع الأمير فيصل نجل الشريف حسين . وقد ساعده فى هذا معرفتـه الشـخصية بالشـريف حسين نفسه . منذ أن كان الشريف يقيم فى اسـتنبول فـى أواخـر عهـد السـلطان عبد الحميـد . كما لعب أحمـد شفيـق باشـا ، رئيس ديوان الخديوى عباس حلمـى الثانى ، دوراً بارزاً فى الإعداد للقاء الأول الذى جمع أوبنهايم بالأمير فيصل(١٦) .

وكان الشريف حسين قد بعث بابنـه الأمـير فيصـل إلى اسـتنبول فـى أوائـل إبريل ١٩١٥ م لكى يزيل من نفوس المسـئولين الأتـراك أى شـكوك مـن ناحيتـه ، وليؤكد على ولائه التام لهم . وتعد هذه مناورة ذكية مـن جـانب الشـريف ، أراد بها أن يغطى من ناحية علاقته القويـة بـالإنجليز وإقدامـه علـى التـآمر معهـم ضـد الأتراك ، كما أراد بها من ناحية أخرى أن يبعد الأتراك عـن الاتفـاق مـع خصمـه اللدود الشريف على حيدر ، الذى كان يتطلع لمنصب الشريف فى مكة ، ويؤيـده فى هذا عدد من رجال الحكومة التركية . وفى تقديرنا أن الشـريف حسـين بعـث بابنه إلى استنبول لكـى يتحسـس أيضـاً مـا عسـى أن يقدمـه الأتـراك والألمـان مـن

عروض قبل أن يعقد اتفاقه النهائى مع الإنجليز . ويبدو أن الشريف حسين نجح من خلال رحلة ابنه تلك فى أن يخدع الجميع فى إستنبول ، وأن يحسن من صورته كثيراً لدى الأتراك والألمان . فتقرير أوبنهايم مليئ بعبارات الإطراء حول إخلاص الشريف حسين للأتراك والألمان ، ونفى أى علاقة له بالإنجليز ، إلى الحد الذى جعل فنجنهايم نفسه يعتقد أن العناصر التركية سيئة النية هى التى كانت تقف من وراء تلطيخ صورة الشريف حسين واتهامه بالعمالة للإنجليز(١٧) .

وبناء على طلب الأمير فيصل ، الذى كان يميل للتعاون مع الأتراك والألمان، لعب أوبنهايم دوراً ملموساً فى الدفاع عن موقف الشريف حسين وإخلاصه لدول الوسط لدى رجال الحكومة التركية . كما لعب دوراً مشبوهاً فى تضليل المسئولين الألمان ، سواء فى استنبول أو برلين ، وتمكن من إقناع حكومته بأنه توصل مع الأمير فيصل إلى وضع أسس سليمة لعلاقة وطيدة بين الشريف حسين وكل من تركيا وألمانيا . خاصة وأنه فى لقائه الأول بالأمير فيصل فى ٨ مايو ١٩٢٥ م وفى حضور شفيق باشا كان قد توصل بالفعل إلى اتفاق حول دور الشريف حسين فى الدعاية ضد بريطانيا فى العالم الإسلامى(١٨) .

وبادر أوبنهايم بالتوسط للشريف حسين لدى أنور باشا لكى تقبل الدولة العثمانية تمويل مشروع وصفه بأنه ثورة عربية كبرى بقيادة الشريف ضد الإنجليز فى الخليج العربى . وفى ١٠ مايو ١٩١٥ م وقع الأمير فيصل نيابة عن والده مع أنور باشا على اتفاق آخر مكتوب فى ورقتين حول التعاون بين الشريف والدولة العثمانية فى ترتيب هذه الثورة . وطبقاً لبنود هذا الاتفاق كان على تركيا أن تتحمل التكاليف المالية التى يقررها الشريف للنهوض بالثورة ضد الإنجليز ، وأن تمده بالأسلحة والذخيرة اللازمة لذلك . مقابل أن يشارك الشريف فى أعمال الدعاية ضد دول الوفاق ، وأن يشارك فى إعلان الجهاد المقدس ضد أعداء الخليفة ، وأن يجند جيشاً من بدو الحجاز تحت قيادة أحد أبنائه لمهاجمة الإنجليز فى الخليج وقناة السويس(١٩) .

ونلاحظ هنا أن مشروع هذا الاتفاق كان لا يختلف كثيراً عن نفس الترتيبات التى كان الشريف يعدها مع الإنجليز للثورة على الأتراك . وربما أنه استخدم أسلحتهم التى أمدوه بها فى أعقاب ذلك الاتفاق فى الثورة عليهم وليس معهم . وساد لدى الأتراك والألمان اعتقاد بأن الشريف حسين أصبح رجلهم الأول فى الجزيرة العربية ، وتصور أنور باشا نفسه أن عقد مثل ذلك الاتفاق مع الشريف حسين سوف يحول دون نجاح الإنجليز فى العودة للتقرب منه مرة أخرى . ووعد أنور باشا الأمير فيصل بأن تكف الحكومة التركية تماماً عن التعاون مع المنافسين لوالده ، كما وعده بالعمل على منع الولاة الأتراك فى جدة من التدخل فى اختصاصات والده(٢٠).

وفى لقاء ثان بين الأمير فيصل وأوبنهايم ، برر الأمير اتصال والده بالإنجليز بحاجته المُلحة للمؤن والغلال التى تحضرها السفن الإنجليزية إلى موانئ الحجاز ، لتلبية حاجات رعايا الشريف . وعبر فيصل عن استعداد والده التام لقطع كل صلة له بالإنجليز فى حالة تدبير احتياجات سكان الحجاز من الغلال والمواد الغذائية ، ووعده أوبنهايم بالنظر أيضاً فى تلك المسألة(٢١) .

وإذا عقدنا مقارنة بين اتفاق الشريف حسين مع الأتراك والألمان من جانب ، واتفاقه مع الإنجليز من جانب آخر ، نجد الاتفاق الأول يفتقر لكل ما يشبع تطلعات الشريف . فى حين أن الاتفاق الثانى كان مليئاً بكل الإغراءات التى يسعى إليها . وبذلك كان الإنجليز أكثر إدراكاً بما يجول فى صدر الشريف حسين ، وقدموا له وعوداً براقة بمملكة واسعة فى الأراضى الخاضعة للدولة العثمانية ، مقابل الثورة عليها . كما أن الأتراك والألمان حملوه فى اتفاقهم معه الكثير من الأعباء والواجبات ، دون أن يقدموا له الأجر المناسب نظير القيام بهذه الأعباء وتلك الواجبات . وبذلك كان من الأحرى بالشريف حسين أن ينفض يديه من اتفاق ابنه فيصل مع الأتراك والألمان . ويقطع صلاته بهم ، ويتزعم الثورة عليهم بالاتفاق مع الإنجليز وبدعم منهم . فى حين وقف أوبنهايم فارغ الفاه ، ومن خلفه كل المسئولين الألمان ، أمام أحداث تلك الثورة التى نشبت فى الحجاز والشام ، والتى

كان من المفترض أن تتحرك فى اتجاهات أخرى ولحساب الأتـراك والألمـان وليـس عليهم .

ومن هنا يتبين لنا أن نشوب هذه الثورة إنمـا يعـود بالدرجـة الأولى لأخطـاء سياسة كل من ألمانيا وتركيا تجاه الشريف حسين والمشرق العربى ، تلـك السياسـة التى وجد الألمان فيها أنفسهم أسيرى مشروع الحملة الدعائية العقيم منذ البدايـة . كما لا نستبعد تفوق الأمير عبد الله نصير الإنجليز على شقيقه الأمير فيصـل نصـير الألمان فى التأثير على القرار النهائى الذى اتخذه الشريف حسين عندما أعلن الثـورة على الدولة العثمانية .

الهوامش

(١) Das Auswaertige Amt Weltkrieg R 21123, A 19592, S. 49.

أرشيف وزارة الخارجية الألمانية ، برقية رقم ٦٥٠ بتاريخ ٣٠ أغسطس من فنجنهايم إلى برلين .

(٢) A.A, R 21124, A 21910, S. 58.

تقرير بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩١٤ من أوبنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(٣) المصدر السابق .

لأسباب غامضة ، تعود لحجب أوراق أوبنهايم الخاصة فى الأرشيف الألمانى عن الباحثين حتى عام ٢٠٠٥ ، كانت مقترحات آراء ذلك الرجل تلقى آذاناً صاغية فى وزارة الخارجية الألمانية ، وهى الوزارة التى كانت ترسم سياسة ألمانيا تجاه المشرق العربى والدولة العثمانية فى هذه الفترة . وينتمى أوبنهايم إلى الأسرة اليهودية الشهيرة بامتلاكها لعدد من بيوت المال فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

(٤) A.A . R 21125, A 26829. S. 26.

برقية رقم ٢٩٧ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ من ياجوف إلى استنبول .

(٥) Ebenda , A 27782, S. 27.

برقية رقم ١٠٨٤ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(٦) Ebenda, A 30868, S. 103.

برقية رقم ٣٨٠ بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩١٤ من ياجوف إلى استنبول .

(٧) Ebenda, A 32559, S 154.

تقرير بتاريخ ٣ نوفمبر ١٩١٤ من بروفر إلى برلين .

(٨) A.A, R 21126, A 33263, S. 32 - 33.

تقرير رقم ٧٤ بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩١٤ من أبنهايم إلى وكيل الخارجية الألمانية .

(٩) Ebenda, A 33830, S. 60 - 61.

تقرير رقم ٢٩١ بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى المستشار الألمانى .

(١٠) Ebenda, A 34468, S. 106.

برقية رقم ١٥٩١ بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى برلين . وقد اعترض فنجنهايم فى برقيته هذه على السماح لبروفر بالتحرك دون قيود بين القرى والمدن العربية فى الشام ، كما اعترض على العلاقة المباشرة بين بروفر وأوبنهايم .

(١١) A.A. R 21126. A 35110, S. 151.

تقرير بتاريخ ٢ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وزير خارجية ألمانيا .

(١٢) A.A. R 21129, A 7805, S. 63.

تقرير بتاريخ ٢ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلو وزير خارجية ألمانيا .

(١٣) A.A. R 21130, A 9005, S. 2 - 8.

مذكرة بتاريخ ١١ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وكيل الخارجية الألمانية ، وقد سجل تسمرمان بخط يده على هامش هذا التقرير موافقته على مشروع أوبنهايم ، وتخويله سلطة الاتصال بالشريف حسين .

(١٤) Ebenda . A 12291 , S 191 - 192.

برقية رقم ٢١٠ بتاريخ ١٢ أبريل ١٩١٥ من فنجنهايم إلى برلين .

(١٥) A.A. R 21133, A 14495, S. 6.

برقية رقم ٩٨٨ بتاريخ ٢٧ أبريل ١٩١٥ من فنجنهايم إلى برلين .

(١٦) A.A. R 21133, A 18460, S. 90 - 105.

تقرير مطول بتاريخ ٢٢ مايو ١٩١٥ من أوبنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(١٧) المصدر السابق ص ٨٧ ، وهى وثيقة تحمل رأى فنجنهايم الشخصى ومرفقة بتقرير أوبنهايم .

(١٨) المصدر السابق ص ٩٧ .

(١٩) المصدر السابق ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢٠) المصدر السابق ص ١٠١ .

(٢١) المصدر السابق ص ١٠٢ .